القرن السادس عشر، بحق الكنيسة في احتكار تفسير الكتاب المقدس وتحديد الرؤيا الفكرية المسيحية، وانما هي، أساساً، حصيلة تراكم أحقاد عنصرية، تعصّبية، استعلائية، استعمارية اوروبية، استخدمت تبريرات دينية مصطنعة لتعبئة اجيال، وتحريكها في صراع يستخدم الدين دون ان يكون في خدمة جوهر ذلك الدين. ولذلك، نجد ان ما يحكم مسيحيي فلسطين هو ذاته الذي يحكم مسلميها، الى جانب انطلاقهم، أصلاً، من الارضية الحضارية ذاتها، وهذا الاساس، في رأينا، هو قانون التحدي والاستجابة الذي تستلزم ادراك آليته احاطة واعية بجوهر، وخصائص، وأبعاد، وأهداف، التحدي لكي ترتقي الاستجابة الى المدى الذي يؤهلها لمقابلة التحدي عبر تقديم جديد مبدع من تراكم الماضي. وفي حالة التحدي، الذي نحن بصدده، أي التحدي الصهيوني، يتضح انه مشترك بالقدر عينه، تجاه كل الفلسطينيين. ولذلك، فان الاستجابة التي يجب ان تكون شاملة لا تحتمل مجالاً لتصادمات داخلية، أو استفزازات، او ردود فعل طائفية المنطلق، ازاء النمو والتقدّم الطبيعي للحركات الاسلامية الفلسطينية المقاومة للغزو الصهيوني؛ وهذا ما طمأن صالح برانسي بشأنه، حين أكد ان «هذه الحركات الاسلامية قد قامت على أرضية وطنية حقيقية، وهي أرضية مقاومة الاحتلال والدفاع عن القضية الفلسطينية»(٧).

لقد تميّز التعاطي الفلسطيني، والعربي، مع الصراع ضد الغزوة الصهيونية، فيما تميّز، بتجاهل العامل الديني لهذا الصراع والتقليل من أهمية دوره في العقود التي تلت اقامة اسرائيل على الارض الفلسطينية، ابرازاً للعامل القومي، والعامل الاقتصادي، والعامل الاستعماري، وكان في هذا اغفال لحقيقة ان الايديولوجية الصهيونية، التي ولدت، أصلاً، في اوروبا ردّاً اجتماعياً ـ سياسياً ـ اقتصادياً ـ دينياً على تنامي تيارات عنصرية اوروبية، ونتاجاً لأوضاع اجتماعية، واقتصادية، وثقافية، أعقبت الثورة الصناعية، والتي تماهت مع مدرسة الاصلاح الاستعماري الاوروبية التي قامت على تهجير الاوروبيين البيض الى افريقيا وآسيا واميركا، قد جعلت من الاسطورة الدينية والادعاءات المغلّفة بستار ديني محور تبريراتها. واذا كان روّاد الصهيونية الأوائل، بمن فيهم روّادها المسيحيون، قد تراوح عملهم بين استخدام وتوظيف انتهازيين للدين في خدمة مشروع استعماري سياسي الاهداف، عنصري الطبيعة، واضفاء قداسة على مشروعهم الاستيطاني هذا، وبين قناعة بتطابق مشروعهم مع رؤية توراتية مريضة، فان الحركة الصهيونية تمثّل احد أبرز الأمثلة في التاريخ على استخدام الدين لأغراض سياسية. بل ان توظيف اساطير دينية، والابتزاز باسم الدين، وتزييف كثير من القيم والافكار والممارسات الدينية لتحصيل أكبر قدر من الدعم والحماية، والوسائل المختلفة لضمان استمرار هيمنة وتفوّق المشروع الصهيوني في المنطقة، لا يزال محور عمل الحركة الصهيونية، ويتمّ عبر شبكات معقّدة، يمثّل الحقل الديني ومؤسساته أبرز أدواتها ومجالاتها. واغفال هذه الحقيقة، أو التقليل من أثرها، لا ينفي وجودها وخطرها. كما ان هذا الاغفال يصبح مزدوجاً في نتائجه المأساوية، اذا رافقه اغفال حقيقة ان الاسلام، عقيدة وحضارة وقوة أخلاقية، هو محور استهداف المشروع الصهيوني والتبنّي الاوروبي ـ الاميركي له.

لقد تعهّد اعلان قيام اسرائيل، مساء الجمعة، بتاريخ ١٤/٥/١٩٤٨، ان اسرائيل «سوف ترعى تطوّر البلاد لمنفعة جميع سكانها دون تفرقة في الدين، أو العنصر، أو الجنس...». ولكن بعد أربعة أيام فقط من هذا الخطاب الموجّه الى العالم الخارجي، امعاناً في خداعه، تمّ فرض الحكم العسكري الاسرائيلي على من بقي في فلسطين من أهلها، مسلمين ومسيحيين؛ ثمّ لم يتردّد حاييم وايزمان، أول رئيس لاسرائيل، في القول: «سوف تصبح مهزلة اذا سمح للعرب [الفلسطينيين، مسلمين